التكرار القرآني عند سعيد النورسي من خلال كليات رسائل النور

أ. هشام فرّوم

د. علي خفيف

جامعة قسنطينة

الملخّص :

استخدم القرآن الكريم أساليب لغوية متعددة في خطابه مع الآخر تتناسب مع الموضوعات التي جسمتها للتأثير في المتلقي والانتقال به من دور المستمع إلى المنصت المدرك إلى المقتنع بالفكرة إلى المنفذ لها.

ويأتي التكرار على رأس هذه الأساليب بصوره المتعددة وتوزيعاته المتنوعة في جسد الخطاب القرآني المقدّس

وقد حاولت هذه الدراسة الوقوف على ضروب هذا الأسلوب وتوزيعاته كما يراها العالم الجليل بديع الزمان سعيد ميرزا النورسي في تفسيره الشهير كليات رسائل النور .

التكرار من الأساليب المعروفة في اللغة العربية، و من سمات فصاحتها، استعمله العرب في كلامهم لغايات متعددة. و هو من المظاهر الشائعة في القرآن الكريم و الحديث النبوي بطريقة مدركة فنيا و بلاغيا؛ من حيث تمثيله جانبا من جوانب البلاغة القرآنية و النبوية مهما . يرد في الكلام للفائدة . و هذا ما دفع أهل اللغة لأن يولوه اهتماما كبيرا .

I. مفهوم التكرار:

1- لغـــة:

حافظ مصطلح التكرار على وجوده و ثباته بسبب "العروبة التي انبثق منها، و حضوره عند البلاغيين العرب القدامى" [1] و اللغويين الّذين أثبتوه في معاجمهم .

فها هو "الخليل بن أحمد الفراهيدي" يحيل التكرار إلى "الكرّ" الّذي يتموضع في معنى الرجوع عليه.[2] و نجده عند "الجوهري" قريبا من هذا التصوّر اللّغوي مع اختلاف طفيف في الصيغة الصرفية التي استند إليها التكرار، و هي التكرير؛ إلاّ أنّ التكرير عائد إلى الكرّ بمعنى الرّجوع . يقال: "كرّ، و كرّ بنفسه، يتعدّى و لا يتعدّى... و كررت الشيء تكريرا و تكرارا" [3].

قال "الجوهري":" كررت الشيء تكرارا و تكريرا، و الكركرة من الإدارة و الترديد، و هو من كرّ و كركر، قال: و كركرة الرحى، ترددها، و ألحّ على أعرابي بالسّؤال، فقال: لا تكركروني، أراد لا تردّدوا عليّ السّؤال فأغلط" [4].

و قال "أبو البقاء" : و التكرار مصدر ثلاثيّ يفيد المبالغة، كالترداد مصدر ردّ، أو مصدر مزيد أصله التكرير، قلبت الياء ألفا عند الكوفيّة، و يجوز كسر التاء فإنّه اسم من التكرر .[5]

أمّا "الفيروز أبادي" فيشير إلى معنى الإعادة النّاجمة عن التكرار من خلال قوله: " كرّ عليه كرّا و كرورا و تكرارا: عطف عنه؛ رجع فهو كرار و مكرّ، و كرّره تكريرا و تكرارا... أعاده مرة بعد مرة أخرى" . [6]

أمّا "ابن منظور" فنجده يقول: "الكرّ: الرّجوع، يقال: كرّر و كرّ بنفسه ... و الكرّ مصدر كرّ عليه يكرّ كرّا و كرورا و تكرارا: عطف، و كرّ عنه: رجع، و كرّر الشيء و كرره: أعاده مرة بعد أخرى، و الكرّة المرّة، و الجمع الكرّات، و يقال: كرّرت عليه الحديث، و كركرته إذا رددته عليه " [7] .

و عليه فالرجوع إلى شيء و إعادته و عطفه هو تكرار هذه محصلة هذا التجوال اللغوي في معاجم اللغة .

2- اصطـــــلاحا :

يعدّ التكرار من الظواهر اللغوية التي تستخدم لفهم النّص و قد درسها العلماء العرب و تنبّهوا إليها عند دراستهم لكثير من الشواهد الشعرية و النثرية، و بيّنوا فوائدها و وظائفها . [8]

كما أنّ دراستهم للنّص القرآنيّ و البحث في إعجازه قد دفعهم إلى البحث في مثل هذه الظواهر، خصوصا أنّه قد وردت في القرآن الكريم بعض نماذج من التكرار، قام على دراستها و تفسيرها بعض البلاغيين فحاولوا تفسير هذه الظواهر و بيان دلالتها ضمن السياق القرآنيّ . [9]

و دون الغوص في معاني التكرار في الدرس البلاغي، سنحاول الإشارة إلى بعض تحديدات هذا المصطلح عند النقاد العرب قديما و حديثا .

فها هو "الجاحظ" يسمّيه الترداد و يرى أنّه مشروط و ليس بجائز في كلّ ظرف . يقول: "و جعل ابن السمّاك يوما يتكلّم، و جارية له تسمع كلامه، فلمّا انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لو لا أنّك تكثر ترداده، قال: أردّده حتّى يفهمه من لم يفهمه، قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد ملّه من فهمه " [10] . و يقول : "و جملة القول في الترداد أنّه ليس فيه حدّ ينتهي إليه و لا يؤتي على وصفه، و إنّما ذلك على قدر المستمعين، و من يحضره من العوام و الخواص..." [11].

يضيف "ابن الأثير" إلى ما سبق "توكيد الكلام و تشييده، و تقريرا لمعنى و إثباته" [12] بمعنى " دلالة اللفظ على المعنى مرددا " [13] و كأنّ اللفظ جاء ليقدّم خدمة جليلة لأداء المعنى، و لكن بصورة تكرارية في النصوص سواء أكان ذلك نثرا أم شعرا .

و نجد "الشريف الجرجاني" يؤكّد أنّه " الإثبات بشيء مرة بعد أخرى" [14] مركّزا على المعنى اللغويّ . أمّا "ابن معصوم المدنيّ" فقد حاول تعريف التكرار بطريقة تكاد تكون أكثر وضوحا من غيره من النقاد، حين ربط معنى التكرار بوظيفته؛ فهو" عبارة عن تكرير كلمة فأكثر باللفظ و المعنى لنكتة" [15].

و لم يخرج "ابن فارس" عن هذا الإطار، فقد عدّه من مذاهب العرب في كلامها، لجؤوا إليه من أجل التوكيد و الإفهام . يقول:" و من سنن العرب التكرير و الإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر" [16] .

و هذا مذهب "ابن قتيبة" يقول: "و للعرب المجازات في الكلام و معناها طرائق القول و مآخذه، ففيها الاستعارة، و التمثيل، و القلب و التقديم و التأخير و الحذف و التكرار" [17]. و في خضم حديثه عن التكرار حاول أن يردّ على الّذين يطعنون بالتكرار في القرآن الكريم مبينا أنّ التكرار فيه لغاية قصدها الله؛ فقد ردّ على قضية تكرار قصص الأنبياء بقوله:" و كان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن قصص الأنبياء مثناه، و مكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، و قصة عيسى إلى قوم، و قصة نوح إلى قوم، و قصة لوط إلى قوم" [18]، و في المنحى ذاته يوضّح "ابن قتيبة" الغاية من تكرار المعنى بلفظين فيقول: "لإشباع المعنى و الاتساع في الألفاظ" [19].

و في نفس الاتجاه حاول "الخطابي" التأكيد على أهمية التكرار القرآني . يقول:" و أمّا ما عابوه من التكرار، فإنّ تكرار الكلام على ضربين أحدهما مذموم، هو ما كان مستغنى عنه، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستعيدوه بالكلام الأوّل؛ لأنّه حينئذ يكون فضلا من القول و ليس في القرآن شيء من هذا" [20] .

و عدّه "ابن رشيق القيرواني" من أصول البديع حين تحدّث عن سلبياته و إيجابياته: "و للتكرار مواضع يحسن فيها، و مواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، و هو في المعاني دون الألفاظ أقلّ"[21].

و في الإطار ذاته أشار إلى أهم الوظائف البلاغية للتكرار و التي منها: التشوق، و الاستعذاب، و التنويه، و الإشارة إلى الاسم إن كان في مدح، و التقرير، و التوبيخ، و التعظيم للمحكى عنه، و الاستغاثة الواقعة في بابا المديح و الشهرة، و شدة التوضيح بالمهجو، و الازدراء و التهكم، و التنقيص .

و نجد " أبو حديد" يقسم التكرار قسمان "تكرير في اللفظ و المعنى جميعا، و تكرير في اللفظ فقط دون اللفظ"[23] و هو على هذا يرتضي تقسيم "ابن رشيق"، و يقبل ما جاء به "ابن الأثير" .

أمّا "السجلماسي" فقد جاء بمصطلحين جديدين للتكرار اللفظي و المعنوي، هما المشاكلة و المناسبة، فقال: "فإعادة اللفظ هو التكرير اللفظي و هو المشاكلة، و إعادة المعنى هو التكرير المعنوي، و هو المناسبة" [24] .

أمّا "الزركشي" فنظر إليه على أنه من علم المشابه " وهو إيراد القصة الواحدة في صور شتى و فواصل مختلفة، و يكثر في إيراد القصص و الأنباء، و حكمته التصرف في الكلام و إتيانه على ضروب؛ ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك: مبتدأ به و متكرر"[25].

و يؤكدّ "الزركشي" على قيمة هذه التقنية و حاجة الكلام لها إن للتوكيد أو للتهديد أو للتنبيه. يقول:" و قد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنا أنه لا فائدة له، و ليس كذلك، بل هو من محاسنها لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض، و ذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادة تحقيقه و قرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيدا" [26] . و هذا ما ذهب إليه "السيوطي" حين قال :"التكرير و هو أبلغ من التأكيد، و هو من محاسن الفصاحة خلافا لبعض من غلط" [27].

و ما يؤكّد هذا المعنى تصنيف النحاة التكرار ضمن باب التوكيد، و هذا ما أشار إليه "ابن جني" حين قال: "اعلم أنّ العرب إذا أرادت المعنى مكنته و احتاطت له، فمن ذلك التوكيد، هو على ضربين، أحدهما تكرير الأوّل بلفظه، و هو نحو ذلك (قام زيد و ضربت زيدا و ضربت) الثّاني تكرير الأوّل بمعناه، و هو على ضربين: "أحدهما للإحاطة و العموم و الآخر للتثبيت و التمكين . الأوّل كقولنا: قام القوم كلّهم، و رأيتهم أجمعين . و الثّاني: نحو قولك: قام زيد بنفسه، و رأيته نفسه " [28] . و لا يتفق "ابن هشام" مع "ابن جني" في المقصدية من التكرار و ما يراد به "و ذلك كون التكرار الّذي هو من سبيل التذكير ليس تأكيدا، إنّما هو ضرب من ضروب تحقيق تواصل العهد" [29].

هذا موقف القدامى من ظاهرة التكرار تباينت فيه وجهات نظرهم حولها، أمّا المحدثون فلم تخرج آراؤهم في أغلبها عن رؤية القدماء . منهم من رأى أنّ تكرار القصة في القرآن الكريم كانت "نتيجة حتمية لنزوله منجما على مدى ثلاث و عشرين سنة، و أنّ الله –سبحانه و تعالى– لم ينزّل القرآن ليحفظ في الصدور فقط، و إنّما ليكون الدستور القويم" [30] . و رأى آخرون أنّ بلاغة التكرار في رأي القدماء تتجسّد في الفائدة، [31] و ترتبط عندهم بالمعنى، حيث يقسمون التكرار إلى حسن و معيب بمقدار تأديته للمعنى، و لا يكفي استلطاف اللفظ سببا لتكراره . [32]

التكرار عند المحدثين لا يقوم فقط على مجرّد تكرار اللفظة في سياق ما، و إنّما ما تتركه هذه اللفظة من أثر انفعالي في نفس المتلقي، و بذلك فإنّه يعكس جانبا من الموقف النفسي و الانفعالي، و مثل هذا الجانب لا يمكن فهمه إلاّ من خلال دراسة التكرار داخل النّص الّذي ورد فيه، فكلّ تكرار يحمل في ثناياه دلالات نفسية و انفعالية مختلفة تفرضها طبيعة السياق النصّي، و لو لم يكن ذلك لكان تكرارا لجملة من الأشياء الّتي لا تؤدّي إلى معنى أو وظيفة في البناء النصّي؛ لأنّ التكرار إحدى الأدوات الجمالية الّتي تساعد المتكلّم على تشكيل موقفه و تصويره، و لابدّ أن يعتمد التكرار بعد الكلمة المتكررة حتّى لا يصبح التكرار جرد حشو . فالكاتب إذا كرر عكس أهمية ما يكرره مع الاهتمام بما بعده حتّى تتجدد العلاقات و تثرى الدلالات و ينمو البناء النصّي.[33]

ملخّص الحديث أنّ التكرار أسلوب تعبيري يصوّر انفعال النفس بمثير ما، و اللفظ المكرر منه هو المفتاح الّذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان، فالمتكلم إنّما يكرر ما يثير اهتماما عنده، و هو يحبّ في الوقت ذاته أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه أو من هم في حكم المخاطبين ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان و المكان .

II. حجاجية التكرار :

إنّ الدراسات الدائرة حول الحجاج و أفانينه تجمع أو تكاد على أهمّية الدور الحجاجي الّذي يضطلع به أسلوب التكرار أو المعاودة بوصفه وسيلة يرمي من خلالها عرض الخطاب عرضا حجاجيا لإبراز شدّة حضور الفكرة المقصود إيصالها .

كما يوفّر التكرار طاقة مضافة تحدث أثرا جليلا في المتلقي و تساعد على نحو فعّال في إقناعه أو حمله على الإذعان، ذلك أنّه يساعد أوّلا على التبليغ و الإفهام كنوع من أنواع الإطناب و الشرح، و يعين المتكلم ثانيا على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان فإذا ردّد المحتج لفكرة ما في قوالب مختلفة، أدركت مراميها و بانت مقاصدها و رسخت في ذهن المتلقي،[34] و قد قيل "الكلام إذا تكرر تقرر" [34]، ما يؤكده "ابن الأثير" في قوله: "و اعلم أنّ المفيد ممن التكرير يأتي في الكلام تأكيدا له و تشييدا من أمره" [35] .

و قد لا تتوقف وظيفة التكرار عند مجرّد توكيد القول بل تمتد إلى تحقيق وظائف أخرى ترتبط بالمستوى الدلالي، فمن خلال فكرة الارتجاع الفنّي (flach back) يتمّ التذكير بالفكرة الّتي سبقت بعد أن يكون المتلقّي قد ابتعد بفكره إلى فكرة جديدة، فسرعان ما يظهر التكرار ليعيده إلى النقطة نفسها . لذلك نجد من وظائفه "البعث و تجديد الخلق بعد الفناء، و كأنني به يريد أن يقول للمتكلم على سبيل المثال: يذكر عدة جمل متتالية، و بعد فترة من الحديث يكاد المستمع يصل إلى نسيان ما قيل في أوّل الكلام فنجد المتكلم يعود ليكرر بعض ما قاله أولا ليذكّر المستمع و يبعث الجملة و يجدّدها بعد أن كادت تنسى" [36] . فالتكرار هو إشباع المعاني بالعودة للمعنى الأصلي، يؤصّل منه، و يفرّع عليه، حتّى يتقرر المعنى المراد و يثبت في ذهن المخاطَب .

كما عدّ التكرار طريقة عرض ذات أثر حجاجي . هذا ما أكّده كلّ من "بيرلمان و تيتيكيا" فـــ "كثرة إيراد الحكايات الدائرة حول موضع واحد، و إن تراكمت حوله الحكايات، و كثيرا ما يصحب هذا التراكم قضية حجاجية أخرى تتوخى في العرض، هذه الإشارات إلى الدقائق و الوقائع المتعلقة بذلك الموضوع تكييفا لحالة الحضور الّذي نريد أن يتّسم بها موضوعنا في ذهن السّامعين، و لإحداث الانفعال أيضا، فبقدر ما يكون الموضوع مخصوصا يكون أبعث على الانفعال" [37] .

و ليس المقصود من التكرار "هو ذلك التكرار المولد للرتابة و الملل أو التكرار المولد للخلل و الهلهلة في البناء"[38] إنّه "التكرار المبدع الّذي يدخل ضمن عمليّة البناء أو الكلام؛ إنّه التكرار الّذي يسمح لنا بتوليد بنيات لغوية جديدة باعتباره أحد ميكانيزمات عملية إنتاج الكلام، و هو أيضا التكرار الّذي يضمن انسجام النّص و توالده و تناميه" [39]، و بالتالي إقامة علاقة حجاجية بين الحجة السابقة و الحجة اللاحقة، و إقامة ترابطا بين مختلف الحجج الواردة . معنى هذا أنّ أسلوب التكرار يكون قادرا على الاضطلاع بدور حجاجيّ متى اعتمد في سياقات محددة و توفرت فيه شروط معينة .

III. التكرار القرآني كما يراه النورسيّ :

لعلّ من مخايل الألمعية، و علامات النبوغ المعرفيّ أن تولد العبقرية من رحم المعاناة؛ معلنة عن بروز شخصية تركية كردية حازت عناصر الخلود الأبديّ في مجال الإصلاح الدّيني و الأدبيّ و البلاغيّ و الحضاريّ؛ و قد اجتمعت مكوّنات التألّق و الوهج العلميّ و الروحيّ في شخص العلامة بديع الزمان ميرزا سعيد النورسي .

و الواقع أنه ليس من قبيل المبالغة القول: إنّ بديع الزمان النورسي يمثّل علامة طريق بارزة لا يمكن تجاهلها، أو تجاهل الاستبصارات البلاغية، و النقدية، و الجمالية، التي توصّل إليها، بفكره الثاقب، و سرعة بديهته، و حاسته النقدية الوهّاجة . و قد كان من أهم أسباب هذا الوهج الفكري لدى النورسي هو اتخاذه القرآن الكريم مصدرا للإلهام و موضوعا للدراسة و البحث في الوقت ذاته . ففي مرحلة مبكّرة من حياته الفكرية وجد نفسه في حيرة شديدة أمام تعدد الطرق التي يمكن أن يسلكها حتّى اهتدي إلى طريق القرآن، يقول: " و حينما كنت أتقلب في هذه الحيرة الشديدة، إذا بخاطر رحماني من الله سبحانه و تعالى يخطر على قلبي و يهتف بي: إنّ بداية هذه الطرق جميعها، و منبع هذه الجداول كلّها، و شمس هذه الكواكب السيارة، إنّما هو "القرآن الكريم"، فالقرآن هو أسمى مرشد، و أقدس أستاذ على الإطلاق، و منذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن، و اعتصمت به، و استمددت منه " [40] .

يقول أيضا: "إنّ الأستاذ الحقيقي إنما هو القرآن ليس إلاّ" [41] . و يقول كذلك: "اعلم أنّي أقول ما دمت حيا، كما قال مولانا جلال الدّين الرّومي – قُدس سرّه– : ما دمت حيا فأنا خادم القرآن، ... لأنّي أرى القرآن منبع كلّ الفيوض، و ما في آثاري من محاسن الحقائق ما هو إلاّ من فيض القرآن، فلهذا لا يرضى قلبي أن يخلو أثر من آثاري من ذكر نبذ من مزايا إعجاز القرآن" [42].

و قد أدّت أستاذية القرآن للنورسي أن يعلن رسائل النور تفسيرا قيما للآيات القرآنية [43]، و أنّ كلّ ما فيها من محاسن ما هو إلاّ من فيض القرآن [44] .

و لأنّ النورسيّ هدف من خلال كتاباته في موضوعات القرآن الكريم أن يجلّي بيانه، و يكشف إعجازه، و يبرهن على أنّه حق، و يقدّمه دستورا للبشرية باشتماله على أسرار الهداية و أسباب السعادة؛ فإنّ الوقوف مع هذه الموضوعات و التأمّل فيما سيخدم هذا الهدف يكون من باب الاعتراف بما قدمه هذا العالم الجليل .

و في هذا الإطار يدخل حديث النورسي عن التكرار في القرآن الكريم كمعجزة من معجزاته، ردا منه على دعاة الانسلاخ من الدّين و من الثقافة الإسلامية ممن يشكك في بلاغة أساليب القرآن الكريم، و يثير الشبهات حول تكرار الآيات فيه .

1- أهمية التكرار عند النورسي :

يرى النورسي أنّ التكرار مهم جدا، و لابدّ منه، سيما في القرآن الكريم، و يردّ على الّذين يعدّون ذلك نقصا فيقول: "اعلم أنّ القرآن لأنّه كتاب ذكر، و كتاب دعوة، يكون تكراره أحسن و أبلغ بل ألزم، و ليس كما ظنّه القاصرون، إذ الذّكر يكرّر، و الدّعاء يردّد، و الدّعوة تؤكّد، إذ في تكرير الذّكر تنوير، و في ترديد الدّعاء تقرير، و في تكرار الدّعوة تأكيد" [45] .

و يقول: "اعلم أنّ القرآن يبحث عن مسائل عظيمة و يدعو القلوب إلى الإيمان بها، و عن حقائق دقيقة، و يدعو العقول إلى معرفتها، فلابدّ لتقريرها في القلوب و تثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صور مختلفة و أساليب متنوّعة" [46] .

و يذهب النورسي أبعد من ذلك حين يرى أنّ التكرار في القرآن مظهر من مظاهر إعجازه، و ذلك أمر يستلزم التكرار و يقتضيه . يقول:" إنّ القرآن الكريم يظهر نوعا من إعجازه البديع أيضا في تكراره البليغ لجملة واحدة، أو لقصة واحدة، و ذلك عند إرشاده طبقات متباينة من المخاطبين إلى معان عدة، و عبر كثيرة في تلك الآية أو القصة، فاقتضى التكرار؛ حيث أنّه كتاب دعاء و دعوة، كما أنّه كتاب ذكر و توحيد، و كلّ من هذا يقتضي التكرار، فكلّ ما كرّر في القرآن الكريم إذا من آية أو قصة إنّما تشتمل على معنى جديد و عبرة جديدة" [47] .

و على هذا فالقرآن الكريم يخلو من التكرار المجّاني، فالفائدة حاصلة، و إنتاج المعنى تكفله العبارة المتجددة؛ أي أنّ المعنى الجديد ملازم لعبرة جديدة غير مسبوقة في سياق التكرار، و أكبر الظنّ أنّ منشأ هذه الجدّة هو التكرار البليغ كما يسمّيه النورسيّ؛ و لعلّ في البلاغة ما يكفي للتدليل على ثراء الخطاب القرآني و غنى سياقه التعبيري . فالمقاصد و الغايات و الأسرار متعددة و القصة واحدة . آية ذلك أنّ الإطار الخارجي للقصة يبقى على صورته اللفظيّة، و تتغيّر مقاصده بتغيّر السياق الّذي ترد فيه .

2- اللّذة النفسيّة و الجماليّة للتكرار القرآنيّ :

لعلّ من أجمل إبداعات النورسيّ حديثه عن اللّذة المترتبة عن أسلوب التكرار في القرآن الكريم؛ و قد ربط بين لذّة التجدّد و التنوّع في التكرار باللّذة البيولوجيّة؛ و هو ربط في منتهى الإقناع و الإبداع . حيث قرن الحكمة من التكرار بما ينتج عن اللّذة البيولوجيّة من الأكل و الشّرب؛ و هي التفاتة لطيفة تعكس وعيا نفسيا و روحيا عاليا .

و النماذج الحيّة الناطقة بهذا الوعي النفسيّ، و الإدراك الجمالي قوله: "اعلم أنّه كما أنّ الحاجات الجسمانيّة مختلفة في الأوقات؛ كذلك الحاجات المعنوية الإنسانيّة أيضا مختلفة الأوقات . فإلى قسم في كلّ آن كـــ"هو الله" للروح . -كحاجة الجسم إلى الهواء- و إلى قسم في كلّ ساعة كـــ "بسم الله" و هكذا فقس " [48] .

معنى هذا أنّ تغيّر الحاجة البيولوجية و تنوّعها يرتبط بتغيّر الأزمنة و البيئات، لذا فتكرار بعض الآيات القرآنية كتكرار الحاجات البيولوجية الّتي لا غنى للمرء عنها مع ارتباطها بالتوحيد بغية التجدّد المستمر . و هذا يمثّل جانبا من الإعجاز البديع في القرآن الكريم .

يقول النورسيّ: "إنّ تكرار الحاجة يستلزم التكرار، هذه قاعدة ثابتة، لذا فقد أجاب القرآن الكريم عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة فأرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة من المخاطبين . فهو يكرر جملا تملك ألوف النتائج، و يكرر إرشادات هي

نتيجة لأدلة لا حدّ لها ... لذا فإنّ تكرار تلك الجمل و الآيات عند بيان أمثال هذه الأمور العظيمة الهائلة لا يعدّ نقصا في البلاغة قطّ، بل هو إعجاز في غاية الروعة و الإبداع، و بلاغة في غاية العلو و الرفعة، و جزالة –بل فصاحة– مطابقة تطابقا تاما لمقتضى الحال" [49] .

إذن فمفهوم الحاجة دلالة على أن التكرار لا يردّ ما تطلبه الرغبة الملحّة، و من المقرر في الطبع الإنسانيّ أنّ الشيء إذا تكرر طلبه بعد مشقّة و عناء ازداد الاشتياق و التعلّق النفسيّ به؛ يقول: "فتكرار الآيات و الكلمات إذن للدلالة على تكرّر الاحتياج، و للإشارة إلى شدّة الاحتياج إليها، و لتنبيه عرق الاحتياج و إيقاظه،و للتشويق على الاحتياج، و لتحريك الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية " [50] .

يفهم من كلام النورسيّ أنّ التكرار دون حاجة لا وجود له في القرآن، لأنّ ذلك معيب بمنطق الشرع، و العقل، و الطبع، و يمثّل لذلك من القرآن الكريم بقوله: " إنّ جملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هي آية واحدة تتكرر مائة و أربع عشر مرة في القرآن الكريم ذلك لأنّها حقيقة كبرى تملأ الكون نورا و ضياء و تشدّ الفرش بالعرش برباط وثيق – كما بيناها في اللمعة الرابعة عشرة – فما من أحد إلاّ و هو بحاجة مسيسة إلى هذه الحقيقة في كلّ حين، فلو تكررت هذه الحقيقة العظمى ملايين المرّات، فالحاجة ما زالت قائمة باقية لا ترتوي؛ إذ ليست هي حاجة يومية كالخبز، بل هي أيضا كالهواء و الضياء الّذي يضطر إليه و يشتاق كلّ دقيقة"[51] .

ظاهر كلام النورسيّ أنّ القرآن غذاء روحيّ لا يملّ مهما تكرّر؛ لأنّه يستمدّ قوّته من طاقة إلهية لا تنضب، و من مادّة الوحي الثريّة الّتي تشعّ من حقيقة البسملة الّتي هي نور أبديّ سرمديّ أزليّ تتفجّر قوته من هذا الإشعاع الربّانيّ؛ فالتكرار هو الشعاع الإلهي، و النّور الّذي تجلت حلاوته، و انتشر أريجه في البسملة .

يواصل النورسيّ – في هذا النهج تأكيدا لقيمة التكرار و ارتباطه بإعجاز القرآن الكريم– تفسير الآيات الواحدة تلو الأخرى . يقول في نصّ آخر: " إنّ الآية الكريمة ﴿و إنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم﴾ تتكرر ثماني مرّات في سورة (الشعراء) . فتكرار هذه الآية العظيمة الّتي تنطوي على ألوف الحقائق في سورة تذكر نجاة الأنبياء –عليهم السّلام– و عذاب أقوامهم، إنّما هو لبيان أنّ مظالم أقوامهم تمسّ الغاية من الخلق، و تتعرض إلى عظمة الربوبيّة المطلقة، فتقتضي العزّة الربّانيّة عذاب تلك الأقوام الظّالمة مثلما تقتضي الرحمة نجاة الأنبياء عليهم السلام، فلو تكررت هذه الآية ألوف المرّات لما انقضت الحاجة و الشوق إليها، فالتكرار هنا بلاغة راقية ذات إعجاز و إيجاز" [52] .

إنّ القراءة الهادئة المتأنيّة لتفسير النورسيّ تقودنا إلى فهم المقابلة الدلالية التيّ تناولها في هذه السّورة؛ و هي مقابلة تكشف عن الغاية السامية من الخلق و هي عبادة الله تعالى، و الانحراف عن الفطرة موجب لعذاب الله؛ كما أنّ دعوة الأنبياء لأقوامهم و معاناتهم مصونة برعاية الله . فما السرّ في تكرار هذه الآية ثماني مرّات في سورة الشّعراء ؟

لا مريّة في أنّ المقصد الأزليّ الّذي من أجله خُلق البشر هو الامتثال لأوامر الله، و اجتناب نواهيه. و تنكّب جادّة الاستقامة الإلهية يفضي حتما إلى عقاب الله تعالى، و هو عقاب عزيز رحيم؛ لأنّ جسامة الجرم المرتكب "المروق عن الدّين" بعد دعوة الأنبياء لأقوامهم و صبرهم على مشقة التبليغ يناسب طبيعة الجزاء، و هنا يكمن قيمة تكرار الآية؛ لما فيها من الإيجاز و الإعجاز الّذي تضمن الجمع بين العزة و الرحمة في سياقين مختلفين .

و في ذات النهج تناول بديع الزمان النورسيّ بالتفسير آية ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذبان﴾ من سورة الرحمان، و آية ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ من سورة المرسلات . يقول: "و كذلك الآية الكريمة ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذبان﴾ المكررة في سورة (الرحمان)، و الآية الكريمة ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ المكررة في سورة (المرسلات) تصرخ كلّ منهما في وجه العصور قاطبة و تعلن إعلانا صريحا في أقطار السموات و الأرض أنّ كفر الجنّ و الإنس و جحـــودهم بالنعم الإلهية، و مظالمهم الشنيعة، يثير غضب الكائنـــات و يجعـــل الأرض و السموات في خنق و غيظ عليهم ... و يخلّ بحكمة خلق العالم و القصد منه ... لذا فهاتان الآيتان ترتبطان

بألوف من أمثال هذه الحقائق، و لها من الأهمية ما لألوف المسائل و قوتها، لو تكررتا ألوف المرّات في خطاب عام موجّه إلى الجنّ و الإنس لكانت الضرورة قائمة بعد، و الحاجة إليها ما زالت موجودة باقية فالتكرار هنا بلاغة موجزة جليلة و معجزة جميلة [53] "

انفرد النورسيّ هنا بقراءة تفسيرية نابعة من رحم فلسفة التوحيد و الإيمان، و أعتقد أنه في تفسيره هذا قد أصاب كبد الحقيقة، و أتى مؤتى يوجب الفضيلة البيانية حين فسّر تجدّد الإقرار و الاعتراف بنعم الله تعالى بغفلة الخلق (جنا و إنسا) عن فعل الإنعام و عن مصدرها . و كأنّه يشير إلى حقيقة التوحيد الموجبة لتجديد العهد مع المنعم و الاعتراف بفضله .

ختاما: ما يمكن التأكيد عليه هنا هو أنّ تكرار الحقائق القرآنية في تجلياتها الفلسفية يصوّب كثيرا من التصوّرات الخاطئة، و لا يقدح أبدا في بلاغة القرآن، و سموّه الفنّي . بل العكس هو بلاغة عالية و صنعة سامية، له ما يبرره دائما لارتباطه بالحاجة و التجدد دائما

3- المقصديّة من التكرار القرآنيّ:

عالج النورسيّ ظاهرة التكرار من خلال ربط الأمثلة الجزئيّة لهذه الظّاهرة بالتصوّر الكلّي الشّامل لأسرارها و حكمتها، على نحو أزال فيما أعتقد ما قد علق في بعض الأذهان من شبهات حولها، و أظهر ما فيها من حكمة و بلاغة و إعجاز .

من مقاصد التكرار الّتي ذكرها النورسيّ في كلياته التقرير و التأكيد و التثبيت و كلّها معان ذكرها المتقدمون و أفاضوا في شرحها و تفصيلها، غير أنّ النورسيّ عالجها من منطلق الحقائق الإيمانيّة؛ و من ثمّ انفرد في منهج المعالجة . يقول: "اعلم أنّ القرآن لأنّه كتاب ذكر، و كتاب دعاء، و كتاب دعوة، يكون تكراره أحسن و أبلغ و ألزم، و ليس كما ظنّه القاصرون، إذ الذّكر يكرّر، و الدّعاء يردّد، و الدعوة تؤكّد؛ إذ في تكرير الذّكر تنوير، و في ترديد الدّعاء تقرير، و في تكرار الدّعوة تأكيد" [54].

لقد ربط النورسيّ التكرار بمسائل الإيمان المحوجة إلى التمكين و الترسيخ و التثبيت؛ لأنّ هذه الشعائر التعبديّة ألصق بالقلب، و الوجدان و هو موطن التأثير . و تتجلى جماليات التكرار في صوّر شتّى من التقرير و التأكيد و التثبيت؛ و كلّها أنماط لها تعلّق بالحقائق الإيمانيّة الموجّهة لتثبيت العقيدة و ترسيخها في القلوب من خلال مسلك التكرار المفضي إلى الإقناع و الحقيقة و اليقين .

و اللاّفت للنّظر أنّ النورسيّ لم يقصر مقاصد التكرار على ما ذكر آنفا، بل انفرد بمقصد مهم جدا و هو التأسيس الّذي يستند إليه التأكيد . و الّذي هو بمثابة مقدمة لتأكيد سياق التكرار فتسبقه و تعضده . يتّضح ذلك من حديث النورسي عن الكلمات التي تتكرر بعد الصلوات ثلاثا و ثلاثين مرة و هي "سبحان الله، و الحمد لله، و الله أكبر" . يقول: " هذه الكلمات المباركة التي تتكرر بعد الصلوات؛ شاهدت أنها ليست تكرارا، بل تأسيس، أو تأكيد في تأسيس معانيها متساندة لا متّحدة" [55]، فالذّاكر حين يردد: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر يردّد الألفاظ ذاتها، لكن دلالتها في نظر النورسيّ تتجدّد، فمعانيها في نفس الذّاكر ليست متحدة، و قد عبّر عن هذه الفكرة بعبارة أخرى في قوله: "تأكيد في المعنى، تأسيس في المقاصد و الثمرات"[56].

يقول أيضا: "أعلم أنّ القرآن مؤسّس لهذا الدّين العظيم المتين، و أساسات لهذا العالم الإسلامي، و مقلّب لاجتماعيّات البشر و محوّلها و مبدّلها، و جواب لمكررات أسئلة الطّبقات المختلفة للبشريّة بألسنة الأقوال و الأحوال... و لابدّ للمؤسّس من التكرير للتثبيت، و من الترديد للتأكيد، و من التكرار للتقرير و التأييد"[57].

ظاهر كلام النورسيّ أنّ التأسيس هو توليد للمعاني، و إثراء للمقاصد، فاللفظ المكرّر ظاهرا هو امتداد للمعنى المتواصل، و توسيع من المجال الدلاليّ للكلمات؛ لبلوغ الغاية من التأييد، و التقرير و التأكيد؛ فاللفظ المردّد يعضد قرينه في سلسلة متعاضدة و متساندة، لا اتحاد بينهما إلاّ في الصّورة اللّفظيّة .

و فيما يلي تلخيص لأهمّ حكم و مقاصد التكرار كما أشار إليها النورسيّ:

أ- أنّ القرآن كتاب ذكر و دعاء و دعوة، فالذّكر يكرّر، و الدّعاء يردّد، و الدّعوة تؤكّد .

ب- أنّ كلّ سورة هي في الحقيقة قرآنا صغيرا؛ فلهذا أدرج أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سوّره، فسهّل السّبيل لكلّ أحد دون أن يحرم أحدا، فكرّر التوحيد، و الحشر، و القصص النبويّ .

ج- أنّ تكراره يناسب تجدّد حاجات الإنسان المعنويّة .

د- أن القرآن مؤسّس لهذا الدّين، و لابدّ للمؤسّس من التكرار للتثبيت، و من الترديد للتأكيد، و من الإعادة للتقرير و التأييد .

و- أن بحث القرآن في المسائل العظيمة، و الحقائق الدقيقة تطلّب تكرارها لتتقرر في القلوب، و تثبت في أفكار العامّة .

خلاصـــة:

ما يمكن قوله في ختام هذا التجوال فيما كتبه النورسي حول موضوع التكرار في القرآن الكريم وثيق الصلة ببلاغته و إعجازه سواء أكان في القصص أم في الأحكام أم في المفردات، فهو يشكّل غرضا فنيا يتجدّد فيه الأسلوب و التصوّر إيجازا و إطنابا، و التفنّن في الأداء لفظا و معنى .

ثمّ إنّ هذا التكرار يؤدّي غرضا نفسيا، لأنّ المكرّر ينطبع في الملكات اللاّشعوريّة التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان و دوافعها كما هو مقرّر في علم النّفس، لذلك نجد أصحاب المصانع و التجارات يستخدمون وسائل الإعلان على أوسع مدى بتكرار الدّعاية في صوّر متنوّعة و مناسبات مختلفة في التأثير .

لقد جاء التكرار في القرآن الكريم موجّها إلى صميم العقيدة و توحيد الخالق أكثر من سواهما من المعاملات والأحكام، و هو تكرار ليس آليا مملا مخلا بالناحية الفنية، معيبا عند النقّاد، بل هو تكرار بلاغيّ يطابق مقتضى الحال .

إنّ القرآن الكريم يطالعنا في تكراره بحقيقة واحدة في مواطن مختلفة في أثواب جديدة و طرق للأداء عديدة، و ليس في ذلك التكرار أدنى تعارض بل هو تكرار يهدف إلى التكامل و الالتحام .

الإحـــــالات :

1- المنصور، زهير، ظاهرة التكرار في شعر أبي القاسم الشابي، مجلة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية .وآدابها، مجلد 13 ، عدد 21 ، ص1304 .

2- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، جزء5 ، لبنان، دار المعرفة، 1997 ، ط 10 ، ص227 .

3- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح) تاج اللغة وصحاح العربية (تحقيق :أحمد عطار، بيروت، الشركة اللبنانية للموسوعات العربية، دار العلم للملايين، 1979 ، ط2 ، ص8 .

4- ابن منظور ، لسان العرب، مادة (كرر)، 135/5 .

5- أبو البقاء، الكليات، ص297 .

6- ابن منظور، لسان العرب، مادة (كرر)، دار صابر، بيروت، ج5، ص136 .

7- م ن .

8- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن الأزدي، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981، ج73/2 .

و انظر العسكري، الصناعتين، ص212 .

ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى الباجي الحلبي و أولاده، 1939، د ط، 2/ 345 .

العلوي، الطراز، 176/2 .

9- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرحه السيد أحمد صقر، بيروت، المكتبة العلمية، 1981، ط3 ص232-241 .

10- الجاحظ، البيان و التبيين، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، د ط، 2005، ص104، 105 .

11- المصدر نفسه، ص72 .

12- ابن الأثير، المثل السائر، 3/ 27 .

13- المصدر نفسه، ص157 .

14- الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف، التعريفات، تحقيق: عبد المنعم الحفني، القاهرة، دار الرشيد، د ت، د ط، ص73

15- ابن معصوم المدني، السيد علي صدر الدين، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، 1969، ط1، ص945 .

16- الصاحبي في فقه اللغة، ص207.

17- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص233.

19- م ن، ص 240 .

20- ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، ص 52 .

21 - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، مصدر سابق، 2/ 73 .

22- المصدر نفسه، ص74 -77 .

23- ابن أبي حديد، عز الدّين بن وهبة الله، الفلك الدّائر على المثل السّائر، تحقيق: أحمد الحوثي (و زميله)، دار الرفاع للنشر و الطباعة و التوزيع، الرياض، 1984، ط2، ص262 .

24- السجلماسي، أبو محمد القاسم، المترع البديع في تجنيس أساليب البديعن تحقيق: علال الغازي، الرباط، مكتبة المعارف، 1980ن ط1ن ص477 .

25- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1/ 112 .

26- المصدر نفسه، ص8 .

27- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، طبعة مؤسسة النداء، 3/ 288 .

28- ابن جني، الخصائص، تحقيق: على النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، 3/102-104 .

29- ابن هشام، مغني اللبيب، دار المعرفة، بيروت، 168/1 .

30- الجربي، محمد رمضان، ابن قتيبة و مقاييسه البلاغية و الأدبية و النقدية، طرابلس، المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان، 1984، ط1، ص122-123 .

31- الكواز، محمد كريم، علم الأسلوب، منشورات جامعة السابع من أبريل، ليبيا، د ت، ط1، ص152 .

32- الصكر، حاتم، كتابة الذّات، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان، 1994، ط1، ص198 .

33- النجارن مدحت سعيدن الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، الدار العربية للكتاب و المؤسسة الوطنية للكتاب، ليبيا، 1984، ص47 .

34- الزركشي، البرهان في علوم القران، 10/3 .

35- ابن الأثير، المثل السائر، 8/3 .

36- الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصّي بين النظيرة و التطبيق، دار قباء، القاهرة، ط1ن 2000، 18/2 .

37- إبراهيم عبد المنعم إبراهيم، بلاغة الحجاج في الشعر العربي، شعر ابن الرّومي أنموذجا، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2007، ص102-103 .

38- العزاوي، أبو بكر، اللغة و الحجاج، ص 48 .

39- المصدر نفسه .

40- النورسي، بديع الزمان، مقدمة المثنوي العربي النوري، ص 25 .

41 - م ن ، ص43 .

42- م ن، ص156 .

43- النورسي، المعجزات القرآنية، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط1، 1990 .
44- النورسي، المثنوي، ص 206 .
45- النورسي، المكتوبات، ص 267 .
46- المصدر نفسه، ص268، المثنوي، ص305 .
47- النورسي، الشعاعات، الشعاع الحادي عشر، ص 305 .
48- م ن.
49- النورسي، الكلمات، ص528- 530 .
50- م ن .
51- النورسي، الكلمات، ص528- 530 .
52- المصدر نفسه .
53- م ن .
54- النورسي، المكتوبات، ص 267- 268 .
55- النورسي، المثنوي، ص141 .
56- المصدر نفسه، ص142 .
57- النورسي، المكتوبات، ص267-268 .